مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

(١٠)

زفاف

الطبعة الأولى المعدّلة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

أَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ قُرْآناً يَلْعَنُ فِيهِ يَهُودَ الْمَدِينَةِ بِكُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَمُجَادَلَتِهِمْ مُحَمَّداً بَعْدَمَا عَرَفُوا أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ الَّذِي حَدَّثَتْهُمْ

عَنْهُ كُتُبُهُمْ ، وَعَرَّفَتْهُمْ بِصِفَتِهِ ، وَبِزَمَنِ مَبْعَثِهِ ، وَالَّذِى ظَلُّوا يَنْتَظِرُونَهُ وَيَتَرَقَّبُونَ مَبْعَثَهُ السِّنِينَ الطَّوِيلَةَ ، وَيُرْهِبُونَ بِهِ جِيرَانَهُمْ وَحُلَفَاءَهُمْ أَهْلَ الشِّرْكِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، فَكَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا مَعَهُمْ يَقُولُونَ لَهُمْ :

إِنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ الْآنَ نَتَّبِعُهُ ، قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ ، نَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ .

كَانَ الْيَهُودُ يَعْلَمُونَ مُنْذُ أَنْزَلَ اللهُ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، أَنَّ اللهَ سَيَبْعَثُ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ صِفَتَهُ وَزَمَانَ مَبْعَثِهِ وَمَكَانَهُ ، وَكَانُوا يَتَرَقَّبُونَ هٰذَا الْمَبْعَثَ بِلَهْفَةٍ وَشَوْقٍ ، وَهُمْ يُوَطِّنُونَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَضُمُّوا مُحَمَّداً إِلَيْهِمْ يَدْعُو بِدَعْوَتِهِمْ ، وَيَسِيرُ إِلَى جَانِبِهِمْ . وَعَلَى هٰذَا كَانَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ مَهْبِطاً مَرْغُوباً لَهُمْ ، يُسَارِعُونَ إِلَى الْهِجْرَةِ إِلَيْهَا كُلَّمَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ بِالْبِلَادِ الَّتِى كَانُوا يَسْتَوْطِنُونَهَا أَوِ اضْطَهَدَهُمْ فِيهَا مُضْطَهِدٌ .

وَعَاشَ الْيَهُودُ إِلَى جَانِبِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ الَّذِينَ نَزَلُوا بِجَانِبِهِمْ حِينَمَا هَاجَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِى كَهْلَانَ بِالْيَمَنِ خَشْيَةَ انْهِيَارِ سَدِّ مَأْرِبَ ، وَتَفَرَّقُوا فِى

أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ .

وَالأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَخَوَانِ ، تَشَعَّبَ نَسْلُهُمَا ، وَتَعَدَّدَتْ بُطُونُهُمَا ، فَكَانُوا قَبِيلَتَى الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ اللَّتَيْنِ نَزَلَتَا بِجِوَارِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ تَلْتَمِسَانِ حِلْفَهُمْ وَجِوَارَهُمْ .

وَحَالَفَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ ، وَارْتَضَوْا هِجْرَتَهُمْ ، إِلاَّ أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوهُمْ مِمَّا فى أَيْدِيهِمْ مِنْ أَرَاضِى الْمَدِينَةِ وَمَزَارِعِهَا الْخِصْبَةِ شَيْئاً ، بَلْ تَرَكُوهُمْ يُحِيُونَ مَوَاتَ الأَرْض ، وَيُقَاسُونَ شَظَفَ الْعَيْشِ ، أَوْ يَتَّخِذُونَهُمْ أَتْبَاعاً لَهُمْ وَمَوَالِىَ .

وَتَنَاسَلَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَتَشَعَّبُوا وَكَثُرُوا ، وَبَاتَ الْيَهُودُ يَخْشَوْنَ هٰذِهِ الْكَثْرَةَ ، وَيَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ من تَكَتُّلِهَا ؛ وَابْتَدَأَ الدَّسُّ ، وَسَارَت الْوَقِيعَةُ مِنَ الْيَهُودِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ .

وَقَامَ الْعِدَاءُ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَمِّ ، وَاشْتَدَّتِ الْمُشَاحَنَاتُ ، وَكَثُرَتِ الأَحْقَادُ ؛

ثُمَّ كَانَتِ الْمَعارِكُ ، وَكانَتِ الْحُرُوبُ ، تَوَدُّ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمَا الْقَضَاءَ عَلَى الأُخْرَى . وَاليَهُودُ بَيْنَهُمَا يُحالِفُونَ هٰذا عَلى ذَاكَ ، وَذاكَ عَلَى هٰذا . حَتَّى تَضْعُفَ قُوَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَيسْقُطَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ قَتْلَى . وَبِذٰلِكَ يَبْلُغُ الْيَهُودُ مَا يَبْغُونَ لِلأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنَ انقِسَامٍ فى الصُّفُوفِ ، وَاضْمِحْلَالٍ فى الْقُوَى .

وَظَلَّ هٰذا حَالَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَالْيَهُودِ حَتَّى كَانَ يَوْم بُعَاثٍ . وَهُوَ يَوْمٌ اصْطَلَى بِنَارِهِ كُلٌّ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ ، حَتَّى كَادَ يُفْنِى كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمَا الْفَرِيقَ الآخَرَ لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَتْهُمَا مُسْكَةٌ مِنَ الْعَقْلِ رَدَّتْهُمَا إِلَى صَوَابِهِمَا فَكَفَّ بَعْضُهُمَا عَنْ بَعْضٍ .

ثُمَّ كَانَ أَنْ ذَهَبَ فَرِيقٌ مِنَ الْخَزْرَجِ إِلَى مَكَّةَ لِحَجِّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ ، وَهُنَاكَ الْتَقَى بِهِمْ مُحَمَّدٌ وَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ . وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا : يَا قَوْمِ ؛ وَاللهِ إِنَّهُ لَلنَّبِىُّ الَّذِى تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ ، فَلاَ تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ .

وَعَلَى هٰذَا أَجَابُوا النَّبِيَّ وَفَرْحَةُ الْأَمَلِ تَعْلُو وُجُوهَهُمْ :

إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلاَ قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ ، وَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ .

وَعَادَ وَفْدُ الْخَزْرَجِ إِلَى الْمَدِينَةِ يَحْمِلُونَ إِلَى قَوْمِهِمْ نَبَأَ إِسْلاَمِهِمْ لِمُحَمَّدٍ ، وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِمُ الإِيمَانَ بِهِ .

وَمَا مَرَّ عَلَى ذٰلِكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَ الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ يَنْتَظِرُونَ مَقْدَمَ الرَّسُولِ إِلَى مَدِينَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ حَالَفُوهُ وَعَاهَدُوهُ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا لِنُصْرَتِهِ .

جَاءَ مُحَمَّدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاسْتَقْبَلَهُ أَكْثَرُ الْيَهُودِ كَمَا اسْتَقْبَلَهُ هؤُلاَءِ الْأَنْصَارُ بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ : كُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ بِهِ ، وَكُلٌّ يُرِيدُ أَنْ يَضُمَّهُ إِلَى جَانِبِهِ .

وعَاهَدَ مُحَمَّدٌ الْيَهُودَ وَوَادَعَهُمْ ، وَأَمَّنَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَكَتَبَ لَهُمُ الْمُحَالَفَاتِ والْمُعَاهَدَاتِ ، وَتَقَرَّبَ مِنْهُمْ ، وَجَامَلَ رُؤَسَاءَهُمْ ، حَتَّى

صَامَ يَوْمَ صَوْمِهِمْ . ثُمَّ انْصَرَفَ يَدْعُو إِلى دِينِ اللهِ ، وَيَعْمَلُ عَلَى نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلٰكِنْ . . هَلْ هٰذَا الَّذِى كَانَ يُرِيدُهُ الْيَهُودُ مِنْهُ ؟ !

هَلْ ظَلُّوا السِّنِينَ الْكَثِيرَةَ ، وَالْآمَادَ الطَّوِيلَةَ ، يَنْتَظِرونَ مَبْعَثَ النَّبِىِّ الَّذِى حَدَّثَتْهُمْ عَنْهُ كُتُبُهُمْ لِيَضُمُّوهُ إِلَيْهِمْ ، وَيَنْتَصِرُوا بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فى الدِّينِ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ ؛ ثُمَّ يَأْتِى الرَّسُولُ الَّذِى انْتَظَرُوهُ فَإِذَا هُوَ يَدْعُو إِلَى دِينٍ تَعَالِيمُهُ غَيْرُ تَعَالِيمِهِمْ ، وإِذَا الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَشْتَدُّ سَاعِدُهُمْ بِهِ ؟ ! مَا الْعَمَلُ – إِذَنْ – وَقَدْ رَأَوُا الأَوْسَ والْخَزْرَجَ يَدْخُلونَ فى دِينِ مُحَمَّدٍ تِبَاعاً ، وَشَاهَدُوهُمْ يَجْلِسُونَ إِلَيهِ ، يَسْتَمِعُون إِلى مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تُنِيرُ أَذْهَانَهُمْ ، وَتَفْتَحُ قُلُوبَهُمْ ؟ !

وَخَشِىَ اليَهُودُ تَكَتُّلَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ مُؤْمِنِينَ ، أَكْثَرَ مِمَّا خَشُوهُمْ مُشْرِكِينَ ، وَخَافُوا ظُهُورَ سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ بِالْمَدِينَةِ عَلَيْهِمْ فَيَزُولُ سُلْطَانُهُمْ وَسِيَادَتُهُمْ !

ثُمَّ كَانَتِ الدَّاهِيَةُ الَّتِى نَزَلَتْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ ، حِينَمَا دَعَا مُحَمَّدٌ بَعْضَهُمْ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُمْ : أَىُّ رَجُلٍ الْحُصَيْنُ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ ؟

قَالُوا : سَيِّدُنَا ، وَابْنُ سَيِّدِنا ، وَحَبْرُنَا ، وعَالِمُنَا .

وَمَا كَادُوا يُتِمُّونَ قَوْلَهُمْ هٰذَا حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِم الْحُصَيْنُ مِنْ أَحَدِ بُيُوتِ النَّبِىِّ وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ :

يَا مَعْشَرَ يهُودَ ، اِتَّقُوا اللهَ ، وَاقْبَلُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ، فَواللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَكُمْ فى التَّوْرَاةِ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ ، فَإِنِّى أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ، وَأُومِنُ بِهِ ، وَأُصَدِّقُهُ ، وَأَعْرِفُهُ .

فَبُهِتَ الْيَهُودُ مِمَّا فُوجِئُوا بِهِ ، وَلٰكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ صَاحُوا بِالْحُصَيْنُ يُكَذِّبُونَهُ فِيما قالَ ، وَيَسُبُّونَهُ ، وَيُسَفِّهُونَ رَأْيَهُ عِنْدَئِذٍ الْتَفَتَ الْحُصَيْنُ إِلَى الرَّسُولِ ، وقَالَ لَهُ : أَلَمْ أُخْبِرْكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَّهُمْ قَومٌ بُهُتٌ ، أَهْلُ غَدْرٍ وَفُجُورٍ !

وَذَلِكَ أَنَّ الْحُصَيْنَ بْنَ سَلَامٍ كَانَ حَبْرًا عَالِماً مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ ، وَكَانَ يَعْلَمُ كَمَا يَعْلَمُ الْيَهُودُ صِفَةَ النَّبِيِّ وَزَمَنَ مَبْعَثِهِ . فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِراً مِنْ مَكَّةَ ، كَانَ الْحُصَيْنُ وَقْتَئِذٍ بِأَعْلَى نَخْلَةٍ لَهُ يَعْمَلُ بِهَا ، وَكَانَتْ تَجْلِسُ تَحْتَ النَّخْلَةِ عَمَّةٌ لَهُ تُدْعَى خَالِدَةَ : فَلَمَّا جَاءَ الْخَبَرُ بِوُصُولِ النَّبِيِّ صَاحَ الْحُصَيْنُ مُكَبِّرًا ، فَقَالَتْ لَهُ عَمَّتُهُ حِينَ سَمِعَتْ تَكْبِيرَهُ :

خَيَّبَكَ اللهُ ، وَاللهِ لَوْ كُنْتَ سَمِعْتَ بِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ قَادِمًا مَا زِدْتَ ! !

فَقَالَ لَهَا الْحُصَيْنُ : أَيْ عَمَّةُ ! ! هُوَ وَاللهِ أَخُو مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَعَلَى دِينِهِ ، بُعِثَ بِمَا بُعِثَ بِهِ .

قَالَتْ خَالِدَةُ : أَيِ ابْنَ أَخِي ! ! أَهُوَ النَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نُخْبَرُ أَنَّهُ يُبْعَثُ ؟ ! ! قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : فَذَاكَ إِذَنْ .

وَخَرَجَ الْحُصَيْنُ إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَسْلَمَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَأَمَرَهُمْ بِالإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا .

وَكَتَمَ الْحُصَيْنُ إِسْلَامَهُ عَنْ قَوْمِهِ حَتَّى جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَوْمًا وَقَالَ لَهُ :
يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ يَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ ، وَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ تُدْخِلَنِى فى بَعْضِ بُيُوتِكَ ، وَتُغَيِّبَنِى عَنْهُمْ ، ثُمَّ تَسْأَلُهُمْ عَنِّى حَتَّى يُخْبِرُوكَ كَيْفَ أَنَا فِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِى ، فَإِنَّهُمْ إِنْ عَلِمُوا بِهِ بَهَتُونِى وَعَابُونِى .

فَأَدْخَلَهُ النَّبِىُّ إِلى حَيْثُ أَرَادَ وَأَخْفَاهُ فى بَيْتِهِ ، ثُمَّ اسْتَدْعَى بَعْضَ الْيَهُودِ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ مَكَانَةِ الْحُصَيْنِ فِيهِمْ ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ ثَنَائِهِمْ عَلَيْهِ ، وَمَدْحِهِمْ إِيَّاهُ ؛ ثُمَّ مِنْ عَيْبِهِمْ وَذَمِّهِمْ لَهُ حِينَمَا عَلِمُوا بِإِسْلَامِهِ !

وَأَظْهَرَ الْحُصَيْنُ إِسْلَامَهُ وَإِسْلَامَ أَهْلِ بَيْتِهِ . وَسَمَّاهُ النَّبِىُّ عَبْدَ الله . أَمَّا الْيَهُودُ فَبَاتُوا يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَهُمْ !

لَقَدْ كَانُوا يَخْشَوْنَ عَلَى مَكَانَتِهِم وَسِيَادَتِهِمْ فى الْمَدِينَةِ مِنْ سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ ، وَالْآنَ بَاتُوا يَخْشَوْنَ عَلَى دِينِهِمْ مِنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ !

كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَأَنَّهُ جَاءَ يَدْعُو إِلَى الإِسْلَامِ مُتَمِّمًا

لِرِسَالَةِ مُوسَى وَعِيسَى ، مُصَحِّحًا مَا حَرَّفَ الْيَهُودُ فِى التَّوْرَاةِ ، وَلٰكِنَّهُمْ مَعَ ذٰلِكَ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يُعَادُوه ، وَإِلَّا أَنْ يُكَذِّبُوهُ ! مُتَّبِعِينَ فِى ذٰلِكَ أَبْعَدَ حُدُودِ السَّفَهِ وَالضَّلَالِ ! حَتَّى إِنَّ حُيَىَّ بْنَ أَخْطَبَ سَيِّدَ يَهُودِ بَنِى النَّضِيرِ كَانَ مِمَّنْ خَرَجَ هُوَ وَأَخُوهُ أَبُو يَاسِرٍ لِمُلَاقَاةِ مُحَمَّدٍ حِينَ مَقْدَمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَمَّا عَادَ الْأَخَوَانِ إِلَى دَارِهِمَا فِى الْمَسَاءِ بَعْدَ أَنْ شَاهَدَا مُحَمَّدًا ، عَادَا وَهُمَا يَجُرَّانِ أَرْجُلَهُمَا جَرًّا ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِمَا عَلَامَاتُ الْهَمِّ وَالْكَدَرِ . وَبَيْنَمَا هُمَا سَائِرَانِ صَامِتَيْنِ لَا يَتَحَدَّثَانِ لِشِدَّةِ مَا بِهِمَا مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ – قَطَعَ صَمْتَهُمَا فَجْأَةً صَوْتُ أَبِى يَاسِرٍ ، فَقَدِ اتَّجَهَ إِلَى أَخِيهِ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ وَهُوَ يَسْتَعْجِبُ ، وَيَهُزُّ يَدَيْهِ هَزَّةً شَدِيدَةً : أَهُوَ هُوَ ؟ ! !

أَجَابَ حُيَىٌّ : نَعَمْ وَاللهِ .

قَالَ أَبُو يَاسِرٍ : أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ ؟ ! !

قَالَ حُيَىٌّ : نَعَمْ .

قَالَ أَبُو يَاسِرٍ : فَمَا فِى نَفْسِكَ مِنْهُ ؟

أَجَابَ حُيَىٌّ : عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ !

أَىُّ سَفَهٍ ! ! وَأَىُّ ضَلاَلٍ ! ! يَكُونُ بَعْدَ هٰذا السَّفَهِ ! وَهٰذَا الضَّلاَلِ مِنْ سَيِّدِ يَهُودِ بَنِى النَّضِيرِ . . ؟ !

وَعَلَى مِثْلِ هٰذَا الْمَسْلَكِ تِجَاهَ مُحَمَّدٍ كَانَ أَكْثَرُ الْيَهُودِ . وَلٰكِنَّهُمْ ظَلُّوا يَكْتُمُونَ مَا فِى نُفُوسِهِمْ ، وَيُخْفُونَ مَا فِى صُدُورِهِمْ ، حَتَّى بَاتُوا يَخْشَوْنَ سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ ، وَيَخَافُونَ دَعْوَتَهُ عَلَى دِينِهِمْ ؛ فَهَا قَدِ اتَّبَعَ مُحَمَّدًا مِنْهُمْ : الْحُصَيْنُ بْنُ سَلاَمٍ وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ ، وَأُسَيْدُ بْنُ سَعْيَةَ ، وَأَسَدُ ابْنُ عُبَيْدٍ .

وَلَمْ يُطِقِ الْيَهُودُ بَعْدَ هٰذا صَبْرًا ، فَكَشَفُوا قِنَاعَهُمْ ، وَخَلَعُوا حِجَابَ رِيَائِهِمْ ، فَابْتَدَءُوا يُنَاوِشُونَ مُحَمَّدًا وَيُحَاجُّونَهُ ، وَيُسَفِّهُونَ رَأْيَهُ ، وَيَرْمُونَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ مُحَمَّدًا بِأَنَّهُمْ شِرَارُهُمْ وَيَقُولُونَ : لَوْ كَانُوا مِنْ أَخْيَارِنَا

مَا تَرَكُوا دِينَ آبَائِهِمْ وَذَهَبُوا إِلَى غَيْرِهِ.

ثُمَّ كَانَ أَنْ أَظْهَرَ نَفَرٌ مِنْهُمُ الْإِسْلَامَ رِيَاءً وَنِفَاقاً، وَبِذٰلِكَ انْضَمُّوا إِلَى صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ بِمَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ يَسْتَمِعُونَ إِلَى مَا يَتْلُو الرَّسُولُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ آيَاتٍ، وَإِلَى مَا يُفَقِّهُهُمْ فِيهِ بِمَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيٍ؛ وَبِهٰذَا أُتِيحَ لِهٰؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْيَهُودِ الْمُنَافِقِينَ أَنْ يُحَاجُّوا الرَّسُولَ فِي رِسَالَتِهِ، وَأَنْ يُحَاوِلُوا إِحْرَاجَهُ بِأَسْئِلَتِهِمُ الْمُتَشَكِّكَةِ الَّتِي تَبْذُرُ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الرِّيبَةَ وَالشَّكَّ مُحَاوِلِينَ بِذٰلِكَ فِتْنَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، وَالْبُعْدَ بِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ؛ كَمَا كَانُوا لَا يَفْتَرُونَ عَنِ الِاسْتِهْزَاءِ مِنْ أَحَادِيثِ الْمُسْلِمِينَ، وَالسُّخْرِيَةِ مِنْ عِبَادَتِهِمْ.

وَفَطِنَ النَّبِيُّ وَالْمُسْلِمُونَ لِأَمْرِ هٰؤُلَاءِ النَّفَرِ؛ فَبَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ بِالْمَسْجِدِ يَوْماً وَقَدْ تَقَارَبَتْ رُءُوسُهُمْ، وَانْخَفَضَتْ أَصْوَاتُهُمْ، يَتَسَارُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيَتَهَامَسُونَ - أَمَرَ النَّبِيُّ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْمَسْجِدِ. وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ أَصْدَرَ النَّبِيُّ أَمْرَهُ هٰذَا حَتَّى سَارَعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى هٰؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ فِي حَمِيَّةِ الْمَغِيظِ الْمُحْنَقِ

يُلَبِّبُونَهُمْ فى عُنْفٍ ، وَيَسْحَبُونَهُمْ فى شِدَّةٍ ، حَتَّى أَلْقَوْا بِهِمْ خَارِجَ الْمَسجِدِ .

وَلٰكِنَّ هٰذَا لَمْ يَكُنْ لِيُسْكِتَ الْيَهُودَ عَنْ مُلاحَقَةِ النَّبِىِّ بِأَسْئِلَتِهِمُ الَّتِى إِنِ انْطَوَتْ عَلَى شَىْءٍ ، فَإِنَّمَا هُوَ لُؤْمُ طَبْعِهِمْ ، وَخُبْثُ مُرَادِهِمْ .

جَاءَ نَفَرٌ مِنْهُمْ يَوْماً إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُ :

يَا مُحَمَّدُ ؛ هٰذَا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ ؟

فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ لِهٰذَا السُّؤَال غَضَبًا شَدِيداً حَتَّى امْتُقِعَ لَوْنُهُ ، وَثَارَ عَلَى هٰؤُلاَءِ الْخُبَثَاءِ ثَوْرَةً عَنِيفَةً غَضَبًا لِرَبِّهِ ؛ عِنْدَئِذٍ نَزَلَ وَحْىُ اللهِ عَلَيْهِ مُطَيِّباً لِخَاطِرِهِ مُسَرِّيًا عَنْ نَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . فَلَمَّا تَلا النَّبِىُّ هٰذَا عَلَى نَفَرِ الْيَهُودِ قَالُوا : فَصِفْ لَنَا . يَا مُحَمَّدُ — كَيْفَ خَلْقُهُ ؟ كَيْفَ ذِرَاعُهُ ؟ كَيْفَ عَضُدُهُ ؟

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَسْتَطِعِ النَّبِىُّ صَبْرًا عَلَى غَثَاثَةِ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ ، فَهَبَّ إِلَيْهِمْ

يُشَاحِنُهُمْ وَيُغَاضِبُهُمْ . وَكَانَ وَحْىُ اللهِ لَهُ فِيمَا سَأَلُوا :

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » ! !

وَكَانُوا يَأْتُونَهُ لِيَقُولُوا : يَا مُحَمَّدُ ؛ إِنْ كُنْتَ رَسُولاً مِنَ اللهِ كَمَا تَقُولُ ، فَقُلْ لله فَلْيُكَلِّمْنَا حَتَّى نَسْمَعَ كَلاَمَهُ .

أَوْ يَقُولُوا : أَحَقٌّ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ هٰذَا الَّذِى جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟ فَإِنَّا لاَ نَرَاهُ كَالتَّوْرَاةِ ؟ ! يَا مُحَمَّدُ ؛ أَلاَ يُعَلِّمُكَ هٰذَا إِنْسٌ وَلاَ جِنٌّ ؟ !

فَكَانَ النَّبِىُّ يُجِيبُهُمْ : أَمَا وَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَأَنِّى لَرَسُولُ اللهِ ، وَتَجِدُونَ ذٰلِكَ مَكْتُوباً عِنْدَكُمْ فِى التَّوْرَاةِ .

وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوا يُجِيبُونَ عَنْ ذٰلِكَ : إِنَّا لاَ نُصَدِّقُكَ حَتَّى يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْكَ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ نَقْرَؤُهُ وَنَعْرِفُهُ .

وَكَانَ النَّبِىُّ كَثِيرًا مَا يَنْصَحُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ وَيَقُولُ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ؛

اِتَّقُوا اللهِ وَأَسْلِمُوا ؛ فَوَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِى جِئْتُكُمْ بِهِ لَحَقٌّ . فَكَانُوا يَجْحَدُونَ ذٰلِكَ وَيُنْكِرُونَ وَهُمْ يَقُولُونَ : لاَ نَعْرِفُ ذٰلِكَ يَا مُحَمَّدُ .

أَوْ يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ ، وَتُؤْمِنُ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَتَشْهَدُ أَنَّهَا مِنَ اللهِ حَقٌّ ؟ ! !

فَكَانَ جَوَابُ النَّبِىِّ : نَعَمْ وَلٰكِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ وَجَحَدْتُمْ مَا فِيهَا مِمَّا أَخَذَ اللهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمِيثَاقِ فِيهَا ، وَكَتَمْتُمْ مِنْهَا مَا أُمِرْتُمْ أَنْ تُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ ، فَبَرِئْتُ مِنْ أَحْدَاثِكُمْ .

فَكَانُوا يَقُولُونَ :

إِنَّا نَأْخُذُ بِمَا فِى أَيْدِينَا ، فَإِنَّا عَلَى الهُدَى وَالْحَقِّ ، وَلاَ نُؤْمِنُ بِكَ وَلاَ نَتَّبِعُكَ .

وَلَمْ يَكْفِ الْيَهُودَ مَا أَعْلَنُوهُ وَمَا صَرَّحُوا بِهِ مِنْ إِنْكَارِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَتَكْذِيبِ دَعْوَتِهِ ، بِرَغْمِ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ أَنَّهُ هُوَ النَّبِىُّ الَّذِى حَدَّثَتْهُمْ بِهِ

كُتُبِهِمْ ، وَأَنَّهُ مَا جَاءَ إِلاَّ بِوَحْىِ اللهِ وَرِسَالَتِهِ . بَلْ رَاحُوا يَدُسُّونَ دَسَائِسَهُمْ بَيْنَ الْأَنْصَارِ والمُهَاجِرِينَ ، وَبَيْنَ الْأَنْصَارِ بَعْضِهِمْ وَبَعْضٍ ؛ فَيَقُولُونَ لِلْأَنْصَارِ الَّذِينَ كَانُوا يُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ فى سَبِيلِ الإِسْلَامِ وَالْمُهَاجِرِين الْمُسْلِمِينَ : لاَ تُنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، فَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكُمُ الْفَقْرَ وَلاَ تُسَارِعُوا فى النَّفَقَةِ ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ عَلاَمَ يَكُونُ ! !

وَهٰكَذَا كَانَ الْحَسَدُ يُسَيْطِرُ عَلَيْهِمْ ، وَالْغَيْرَةُ تَأْكُلُ قُلُوبَهُمْ ، كُلَّمَا رَأَوْا تَعَاطُفًا بَيْنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ؛ وَكَانَ الضِّغْنُ وَالغَيْظُ يَحْرِقُ صُدُورَهُمْ كُلَّمَا شَاهَدُوا مَوْقِفًا طَيِّباً بَيْنَ المُسْلِمِينَ .

مَرَّ يَوْمًا شَاسُ بْنُ قَيْسٍ – وَهُوَ شَيْخٌ يَهُودِىٌّ هَرِمٌ – عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَهُمْ فى مَجْلِسٍ لَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ وَيَسْمُرُونَ ، بَعْدَ أَنْ وَحَّدَ الْإِسْلَامُ كَلِمَتَهُمْ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنَ اجْتِمَاعِهِمْ وَأُلْفَتِهِمْ فَقَالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ : لَقَدِ اجْتَمَعَ مَلأُ بَنِى قَيْلَةَ بِهٰذِهِ الْبِلادِ ، لاَ وَاللهِ

مَالَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ مِنْ قَرَار .

وَسَارَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى شَابٍّ مِنَ الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُ : اعْمَدْ إِلَيْهِمْ ، فَاجْلِسْ مَعَهُمْ ، ثُمَّ اذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثٍ ، وَمَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا قَدْ تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ .

وَيَوْمُ بُعَاثٍ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِى اشْتَبَكَ فِيهِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهُمَا مَعَ بَعْضٍ . فى حَرْبٍ ضَرُوسٍ كَادَتْ أَنْ تُودِىَ بِهِمَا ، وَذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْهِمَا بِمُبَايَعَةِ الرَّسُولِ .

فَقَصَدَ الشَّابُّ إِلَى جَمَاعَةِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَجَلَسَ بَيْنَهُمْ ، وَمَازَالَ بِالْمُجْتَمِعِينَ حَتَّى حَوَّلَ الحَدِيثَ نَحْوَ الْهَدَفِ الَّذِى يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ يَوْمِ بُعَاث .

وَتذاكَرَ الْفَرِيقَانَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا فِيهِ ، وَتفَاخَرَا بِمَا أَنْشَدَ شُعَرَاؤُهُمَا يَوْمَئِذٍ مِنْ أَشْعَارٍ ، وَصَارَ كلُّ فَرِيقٍ يُشِيدُ بِمَا كَانَ مِنْهُ عَلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ ، حَتَّى احْتَدَّ

النِّزاعُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ : أَوْسِيٍّ وَخَزْرَجِيٍّ ، فَتَشَاجَرَا ، وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ : إِنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ . فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعاً وقالُوا : قَدْ فَعَلْنا .

وتَوَاعَدَا عَلَى المَكانِ الَّذَى يَلْتَقِيان فِيهِ لِلْقِتَالِ ، ثُمَّ هَبُّوا جَمِيعًا وَهُمْ يَتَصَايَحُونَ : السِّلَاحَ ! ! السِّلَاحَ ! !

وبَلَغَ مَسَامِعَ الرَّسُولِ مَا كَانَ ، فَخَرَج وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى حَيْثُ اجْتَمعَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ لِلْقِتَالِ ، فَوَقَفَ بَيْنَهُمْ يُرَاجِعُهُمْ ، وَيُسْدِى إِلَيْهِمْ نُصْحَهُ وَهوَ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ اللهَ اللهَ ! ! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ ! !

فَكَانَ لِكَلِمَاتِ النَّبِىِّ هٰذِهِ فى نُفُوسِ الْقَوْمِ أَكْبَرُ الْأَثَرِ ؛ فَمَا لَبِثُوا أَنْ عَادُوا إِلَى عُقُولِهِمْ ، وَأَدْرَكُوا مِقْدَارَ خَطَئِهِمْ ، وَعَرَفُوا أَنَّ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ لَيْسَ إِلَّا نَزْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَبَكَوْا ، وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ

بَعْضاً ، وَانْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ سَامِعِينَ طَائِعِينَ . وَهكَذَا خَذَلَ اللهُ عَدُوَّ اللهِ شَاسَ بْنَ قَيْسٍ ، وَرَدَّ كَيْدَهُ فى نَحْرِهِ .

وَكَانَ مِمَّا تَآمَرُوا بِهِ لِفِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

تَعَالَوْا نُؤْمِنْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ نَهَارًا ، وَنَكْفُرْ بِهِ لَيْلاً ، حَتَّى نُلَبِّسَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دِينَهُم ، وَنُشَكِّكَهُمْ فِيهِ ، لَعَلَّهُمْ يَصْنَعُونَ كَمَا نَصْنَعُ ، وَيَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِ .

فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَاتٍ قَصَّ عَلَيْهِ فِيهَا مَا كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَأْتَمِرُونَ بِهِ .

وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ بِالْيَهُودِ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ فِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ فى دِينِهِمْ وَتَشْكِيكِهِمْ فى أَمْرِهِ ، بَلْ تَعَدَّوْا ذٰلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ نَفْسِهِ فَأَتَى إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ مُحَاوِلِينَ الْاحْتِيَالَ عَلَيْهِ بِحِيَلٍ خَبِيثَةٍ دَنِيئَةٍ يَقُولُونَ :

يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَشْرَافُهُمْ وَسَادَاتُهُمْ ، وَإِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَتْكَ الْيَهُودُ كَافَّةً وَلَمْ يُخَالِفُونَا ، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَعْضِ قَوْمِنَا

خُصُومَةً ، أَفَنُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ فَتَقْضِىَ لَنَا عَلَيْهِمْ ، وَنُؤْمِنَ بِكَ وَنُصَدِّقَكَ . . ؟ !

يَا لَلْغَثَاثَةِ وَلُؤْمِ الطَّبْعِ . . ! !

يَأْتُونَ إِلى رَسُولِ اللهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللهِ ، يُرِيدُونَ فِتْنَتَهُ وَرِشْوَتَهُ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ! مُحَاوِلِينَ إِغْوَاءَهُ وَاجْتِذَابَهُ نَحْوَ الضَّلاَلِ .

وَرَفَضَ النَّبِىُّ عَرْضَهُمْ ، وَأَبَى أَنْ يَسْمَعَ إِلى سَفَاهَةِ قَوْلِهِمْ .

وَأَتَاهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ يَوْماً يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ مَنْ سَبَقَكَ مِنَ الرُّسُلِ ذَهَبُوا جَمِيعاً إِلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَكَانَ مُقَامُهُمْ بِهَا ، فَلِمَ لَمْ تَفْعَلْ مِثْلَهُمْ ؟

وَلَمَّا أَوْحَى اللهُ إِلَى النَّبِىِّ أَنْ يَجْعَلَ قِبْلَةَ الصَّلاَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَدَلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى - أَنْكَرَ الْيَهُودُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَأَتَوْهُ يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا وَلاَّكَ عَنْ قِبْلَتِكَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا ؟ ! اِرْجِعْ إِلَى قِبْلَتِكَ نَتَّبِعْكَ وَنُصَدِّقْكَ .

وَأَدْرَاكَ مُحَمَّدٌ أَنَّهُمْ فِى هٰذَا وَذَاكَ إِنَّمَا يُرِيدُونَ الْمَكْرَ بِهِ ، وَكَانَ فِى تَنْزِيلَ اللهِ عَلَيْهِ خَيْرُ مِعْوانٍ لَهُ عَلَى تَفَهُّمِ أَغْرَاضِهِمْ ، وَإِدْرَاكَ نَوَايَاهُمْ .

وَلَمْ يَيْأَسْ مُحَمَّدٌ بِرَغْمَ ذٰلِكَ مِنْ مُهَادَنَةِ الْيَهُودِ ، بَلْ ظَلَّ يُسَالِمُهُمْ وَيُلَايِنُهُمْ وَيُسْدِى إِلَيْهِمُ النُّصْحَ تَارَةً ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أُخْرَى ، وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَجَبُّرٍ وَمَكْرٍ وَخُبْثٍ وَعِنَادٍ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ أَنْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ : مَا الْهُدَى إِلَّا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ ، فَاتَّبِعْنَا يَا مُحَمَّدُ تَهْتَدِ !

وَكَانَ الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ يَقُولُونَ لَهُمْ :

يَا مَعْشَرَ يَهُود ، اِتَّقُوا اللهَ وَأَسْلِمُوا ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ ، وَتُخْبِرُونَنَا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ ، وَتَصِفُونَهُ لَنَا بِصِفَتِهِ .

فَيَكُونُ رَدُّهُمْ عَلَى ذٰلِكَ : مَا جَاءَنَا بِشَىْءٍ نَعْرِفُهُ ، وَمَا هُوَ بِالَّذِى كُنَّا نَذْكُرُهُ لَكُمْ !

وَهٰكَذَا كَابَرَ الْيَهُودُ وَكَذَّبُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ زُوراً وَبُهْتَاناً ، وَأَنْكَرُوا مَا كَانُوا

يَعْرِفُونَ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ !

وَعَلَى ذٰلِكَ كَانَ لاَبُدَّ أَنْ يَسْتَعِرَ الْجَدَلُ ، وَتَقَعَ الْمُنَاوَشَاتُ وَالْمُشَاحَنَاتُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَأَصْحَابِ الرَّسُولِ .

وَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَوْماً إِلَى بَيْتِ الْمَدَارِسِ الَّذِى يَتَدَارَسُ فِيهِ الْيَهُودُ دُرُوسَهُمْ ، وَفِيهِ رَجُلٌ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ يُدْعَى فِنْحَاصَ وَقَدِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ يُحَاضِرُهُمْ وَيُدَارِسُهُمْ ؛ فَدَعَا أَبُو بَكْرٍ فِنْحَاصَ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَإِلَى الإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ فِنْحَاصُ :

وَاللهِ يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا بِنَا إِلَى اللهِ مِنْ فَقْرٍ ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَفَقِيرٌ ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إِلَيْنَا ، وَإِنَّا عَنْهُ لأَغْنِيَاءُ ، وَمَا هُوَ عَنَّا بِغَنِىٍّ وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا ما استَقْرَضَنا أَمْوَالَنا كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُكُمْ ، يَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيُعْطِينَاهُ ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا ما أَعْطَانَا الرِّبَا .

عِنْدَئِذٍ تَمَلَّكَتْ أَبَا بَكْرٍ ثَوْرَةٌ عَنِيفَةٌ مِنَ الْغَضَبِ بِرَغْمِ مَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ

هُدُوءِ الطَّبْعِ ، ودَمَاثَةِ الْخُلقِ ، وَانْقَضَّ عَلَى فِنْحَاصَ يُشْبِعُ وَجْهَهُ لَطْماً وضَرْباً وهُوَ يَقُولُ :

وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَوْلاَ الْعَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، لَضَرَبْتُ رَأْسَكَ أَىْ عَدُوَّ اللهِ . وَذَهَبَ فِنْحَاصُ إلى مُحَمَّدٍ يَشْكُو أَبَا بَكْرٍ .

وَسَأَلَ مُحَمَّدٌ أَبَا بَكْرٍ :

مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟

أَجَابَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ ؟ إنَّ عَدُوَّ اللهِ قَالَ قَوْلاً عَظِيماً ، إنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ ، فَغَضِبْتُ للهِ مِمَّا قَالَ ، وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ . فَأَنْكَرَ فِنْحَاصُ قَوْلَهُ قَائِلاً : مَا قُلْتُ ذٰلِكَ .

فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ مِنَ الْآيَاتِ مَا بَيَّنَ لَهُ كَذِبَ فِنْحَاص ، وَأَظْهَرَ صِدْقَ أَبِى بَكْرٍ .

وَلَمْ تَخْلُ الْمُشَاحَنَاتُ الَّتِى كَانَتْ تَقُومُ بَيْنَ عَامَّةِ الْيَهُودِ وَعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ

كَذٰلِكَ مِنْ تَلاَحُمٍ وَتَشَابُكٍ وَسِبَابٍ ، كَانَ يَنْتَهِى فى أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ عِنْدَ عَرْضِهِ عَلَى الرَّسُولِ . وَكَانَ حُكْمُ مُحَمَّدٍ فى ذٰلِكَ عَدْلاً وَصِدْقًا .

جَاءَهُ يَوْماً مُتَخَاصِمَانِ : يَهُودِىٌّ يَشْكُو مُسْلِماً ، وَكَانَ مَوْضُوعُ شَكْوَاهُ أَنَّهُمَا تَشَاحَنَا وَتَشَاتَمَا ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ مُفَاخِراً بِرَسُولِ اللهِ : وَالَّذِى اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ . . .

فَقَالَ الْيَهُودِىُّ : وَالَّذِى اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ . . .

فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِىِّ لِهٰذَا الْقَوْلِ ، فَجَاءَ الْيَهُودِىُّ إِلَى مُحَمَّدٍ يَشْكُو مَا كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِ ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ لِلْمُسْلِمِ :

لاَ تُخَيِّرُونِى عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُصْعَقُ مَعَهُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِى أَكَانَ فِيمَنْ صُعِقَ قَبْلِى أَمْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللهُ . . ؟ ! مَا أَرْوَعَ عَدْلَكَ وَصِدْقَكَ يَا مُحَمَّدُ . . ! !

وَعَلِمَ نَصَارَى نَجْرَانَ بِانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِى الْمَدِينَةِ ، فَأَوْفَدُوا وَفْداً إِلَيْهَا يَضُمُّ سِتِّينَ رَجُلاً مِنْهُمْ ، لِيَتَعَرَّفُوا هٰذَا الدِّينَ الْجَدِيدَ الَّذِى أَخَذَ يَنْتَشِرُ ، وَلِيَرَوْا هٰذَا الرَّسُولَ الَّذِى بُعِثَ .

وَكَانَ فِى الْوَفْدِ ثَلاَثَةُ رِجَالٍ ، هُمْ أَكْبَرُ رِجَالِ نَجْرَانَ شَرَفاً : عَبْدُ الْمَسِيحِ أَمِيرُهُمْ ، وَالْأَيْهَمُ مُسْتَشَارُهُمْ ، وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ عَلْقَمَةَ أُسْقُفُّهُمْ وَصَاحِبُ مَدَارِسِهِمْ ، وَكَانَ قَدْ دَرَسَ كُتُبَ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَتَبَحَّرَ فِى الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ ، فَأَكْرَمَهُ مُلُوكُ الرُّومِ ، وَشَرَّفُوهُ ، وَبَنَوْا لَهُ الْكَنَائِسَ ، وَأَمَدُّوهُ بِالْأَمْوَالِ . لِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ جِدِّهِ وَاجْتِهَادِهِ فِى سَبِيلِ دِينِهِمْ .

وَهٰكَذَا اجْتَمَعَتْ بِالْمَدِينَةِ الْأَدْيَانُ الْكِتَابِيَّةُ الثَّلاَثَةُ وَكَانَ أَنْ عُقِدَتِ اجْتِمَاعَاتٌ تَبْحَثُ أَمْرَ هٰذِهِ الْأَدْيَانِ . اِجْتَمَعَ فِيهَا مُحَمَّدٌ بِرُؤَسَاءِ وَفْدِ نَجْرَانَ ثُمَّ بِكِبَارِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ .

وَتَكَلَّمَ كُلٌّ عَنْ دِينِهِ ، وَكَثُرَ الْجَدَلُ ، وَتَشَعَّبَ النِّقَاشُ ، إِلَى أَنْ دَعَا

مُحَمَّدٌ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ إِلَى الْإِسْلَامِ .

قَالَ الْيَهُودُ :

وَمَا الَّذِى تُرِيدُهُ يَا مُحَمَّدُ ؟ ! أَتُرِيدُ أَنْ نَعْبُدَكَ ؟ !

قَالَ النَّصَارَى :

أَوَذَاكَ تُرِيدُ مِنَّا يَا مُحَمَّدُ ، وَإِلَيهِ تَدْعُونَا ؟ !

أَجَابَ مُحَمَّدٌ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ ، أَوْ آمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ ، فَمَا بِذَلِكَ بَعَثَنِى اللهُ ، وَلاَ أَمَرَنِى ! !

قَالَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : يَا مُحَمَّدُ ، بِمَنْ تُؤْمِنُ مِنَ الرُّسُلِ ؟

قَالَ مُحَمَّدٌ :

نُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ . لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

قَالُوا : وَمَا الَّذِى تُنْكِرُهُ عَلَيْنَا وَأَنْتَ تُصَدِّقُ بِمَا نُؤْمِنُ بِهِ ؟

قَالَ : لأَنَّكُمْ حَرَّفْتُمْ مَا فى كُتُبِكُمْ ، وَأَحْدَثْتُمْ فِيهَا تَغْيِيرًا .

قَالَ الْيَهُودُ : إِنَّا لاَ نُؤْمِنُ إِلاَّ بِمَا بَيْنَ أَيْدِينَا ، وَنُؤْمِنُ بِمُوسَى .

وَقَالَ النَّصَارَى : إِنَّا نُؤْمِنُ بِمَا بَيْنَ أَيْدِينَا ، وَنُؤْمِنُ بِعِيسى . وَعِيسى ابْنُ اللهِ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : إِنَّا لاَ نَعْبُدُ إِلاَّ اللهَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، أَسْلِمُوا .

فَإِنِّى مَا جِئْتُكُمْ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ عِيسَى وَمُوسَى ، وَمَنْ سَبَقَهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ .

قَالَ الْيَهُودُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّا لاَ نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَى بَشَرٍ شَيْئًا بَعْدَ مُوسَى ، نَحْنُ لاَ نُؤْمِنُ بِكَ وَلاَ نُؤْمِنُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَلاَ بِمَنْ آمَنَ بِهِ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : قَدْ كَفَرْتُمْ بِعَدَمِ إِيمَانِكُمْ بِمَنْ بَعَثَ اللهُ مِنْ رُسُلٍ ، وَبِتَكْذِيبِكُمْ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ ، وَبِتَحْرِيفِ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، وَبِكِتْمَانِ

بَعْضٍ آخَرَ.

وَقَالَ النَّصَارَى : يَا مُحَمَّدُ ، لَقَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ .

وَهٰكَذَا وَقَفَ مُحَمَّدٌ بَيْنَ أَفْرَادِ وَفْدِ نَجْرَانَ وَرُؤَسَائِهِمْ وَأَصْحَابِ دِيَانَتِهِمْ ، يُجَاهِدُ لِلْحَقِّ ، وَيُصَارِعُ الْبَاطِلَ ، وَيُلْقِى إِلَيْهِمْ بِمَا يُوحِى اللهُ إِلَيْهِ مِنْ قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ، وَبِمَا يَعْلَمُهُ بِمَا بُعِثَ بِهِ عِيسَى ، وَبِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ ؛ وَوَفْدُ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى يُحَاجُّونَ مُحَمَّدًا وَيُجَادِلُونَهُ فى ذَلِكَ ، وَيُصِرُّونَ عَلَى أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَنْهُ هُوَ الْبَاطِلُ .

ثُمَّ كَانَ قَوْلُ اللهِ هُوَ الْفَصْلُ فى مُحَاجَّةِ النَّصَارَى لِمُحَمَّدٍ فِيمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ عَنْ عِيسَى مِنْ عِلْمِ اللهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ يَقُولُ :

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ؛ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلَ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » .

وَتَلاَ مُحَمَّدٌ عَلَى وَفْدِ نَجْرَانَ قَوْلَ اللهِ هٰذَا ، فَسُقِطَ فى أَيْدِيهِمْ ، وَلَمْ يُحيرُوا جَوَاباً ، فَقَدْ هَابُوا لَعْنَةَ اللهِ ، وَخَافُوا نِقمَتَهُ إِنْ هُمْ رَضُوا بِمُلاَعَنَةِ النَّبِىِّ لَهُمْ .

وَقَالَ اللهُ لِمُحَمَّدٍ : « قُلْ : يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

إِزَاءَ هٰذَا لَمْ يَجِدْ وَفْدُ نَجْرَانَ بُدًّا مِنَ الانْصِرَافِ عَنْ مُحَاجَّةِ مُحَمَّدٍ وَهُمْ يَقُولُونَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، دَعْنَا نَنْظُرْ فى أَمْرِنَا ، ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ .

وَلَمَّا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ سَأَلُوا أَمِيرَهُمْ : يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ ، مَاذَا تَرَى ؟ !

أَجَابَهُمْ : وَاللهِ - يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى - لَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِىٌّ

مُرْسَلٌ ، وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْفَصْلِ مِنْ خَبَرِ صَاحِبِكُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ : مَا لاَعَنَ قَوْمٌ نَبِيًّا قَطُّ فَبَقِيَ كَبِيرُهُمْ ، وَلاَ نَبَتَ صَغِيرُهُمْ ، وَإِنَّهُ لَلاِسْتِئْصَالُ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ مَا أَلِفْتُمُوهُ مِنْ دِينِكُمْ ، وَرَضِيتُمُ الْإِقَامَةَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ فِى صَاحِبِكُمْ - فَوَادِعُوا الرَّجُلَ ، ثُمَّ انْصَرِفُوا إِلَى بِلاَدِكُمْ .

وَبِهٰذَا قَرَّرَ الْقَوْمُ مُوَادَعَةَ مُحَمَّدٍ ، وَالْعَوْدَةَ إِلَى بِلاَدِهِمْ ، فَأَتَوْا إِلَيْهِ يَقُولُونَ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، قَدْ رَأَيْنَا أَلَّا نُلاعِنَكَ ، وَأَنْ نَتْرُكَكَ عَلَى دِينِكَ ، وَنَرْجِعَ عَلَى دِينِنَا وَلٰكِنِ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا ، يَحْكُمْ بَيْنَنَا فِى أَشْيَاءَ اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالِنَا ، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا أَهْلُ رِضًا .

فَتَخَيَّرَ لَهُمُ النَّبِىُّ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ، فَسَافَرَ مَعَهُمْ لِيَفْصِلَ لَهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَ .

وَفِيمَا هُمْ فِى الطَّرِيقِ قَالَ أَبُو حَارِثَةَ - وَهُوَ أَكْثَرُ وَفْدِ نَجْرَانَ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً -

لِأَخٍ لَهُ كَانَ يَصْحَبُهُ عَنْ مُحَمَّدٍ : وَاللهِ إِنَّهُ لَلنَّبِىُّ الَّذِى كُنَّا نَعْلَمُ !

فَسَأَلَ الأَخُ أَخَاهُ دَهِشاً : وَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ هٰذَا ؟ ! أَجَابَ أَبُو حَارِثَةَ : يَمْنَعُنِى مَا صَنَعَ بِنَا قَوْمُنَا : شَرَّفُونَا ، وَمَوَّلُونَا ، وَأَكْرَمُونَا ؛ وَقَدْ أَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ ، فَلَوْ فَعَلْتُ نَزَعُوا مِنَّا كُلَّ مَا تَرَى .

يَا لَلْعَجَبِ . . ! ! كَانُوا يَعْلَمُونَ حَقَّ الْعِلْمِ كَمَا يَعْلَمُ الْيَهُودُ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَبِصِدْقِ مَبْعَثِهِ ، وَلٰكِنَّهُمْ فِى سَبِيلِ عَرَضِ الدُّنْيَا ، وَنَعِيمِهَا الزَّائِلِ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَنْصَرِفُوا مُعْرِضِينَ عَنْ دَعْوَتِهِ ، صَادِّينَ عَنْ رِسَالَتِهِ إِبْقَاءً لِمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ جَاهٍ وَنِعَمٍ .

أَمَّا أَخُو أَبِى حَارِثَةَ فَقَدْ ظَلَّتْ كَلِمَاتُ أَخِيهِ عَنْ مُحَمَّدٍ عَالِقَةً بِذِهْنِهِ حَتَّى أَسْلَمَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ .

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٠٠٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٧-٩-٤

١/٧٩/٣٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)